المختار من كنوز السنة

أ.د/ محمد عبد الله دراز(*)

عن أبي أمامة -رضي الله عنه-: أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان» (أخرجه أبو داود)[1].

عن أبي أمامة -رضي الله عنه-: (أبو أمامة): كنيةٌ لعدةٍ من الصحابة أحدهم باهليٌّ، وسائرهم أنصاريون من (الأوس) ومن (الخزرج). وراوي الحديث هو (أبو أمامة الباهلي)[2]، واسمه: صُدَيُّ بن عجلان، صحابي جليلٌ من المكثرين في الرواية، شهد (بيعة الرضوان) في (الحديبية) وروى الطبراني بسند ضعيفٍ أنه شهد (أُحُدًا) أيضًا. ثم إنه شهد وقعة (صفين) مع (عليٍّ) ذكره (ابن حبان) ثم سكن (حمص) إلى أن مات. ذكره (ابن سعد) وكانت وفاته سنة ٨٦هـ، وهو آخر من مات من الصحابة بالشام.

«من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان»: معنى القرينتين الأوليين قد مضى في شرح الخلة الثانية من الحديث الذي قبله. غير أن معمول الحب والبغض هنا غير مذكورٍ، فيعم الناس والأشياء. والإعطاء والمنع من ثمرات الحب والبغض، لأن القلب هو أمير البدن يصلحُ بصلاحه ويفسد بفساده. فمن كان حبه لله وبغضه لله وكان إعطاؤه لله ومنعه لله، فلا يُعطي أحدًا طمعًا في مكافأته أو حبًا في محمدته أو رغبةً في حُسن الأحدوثة بين الناس إذا رأوا عطاءه أو سمعوا به. ولا يمنع أحدًا لعداوةٍ دنيوية ولا حبًا في المال وحرصًا عليه. بل يمنع من يمنعه وقوفًا عند أمر الله كأن يمنع زكاته من لا يستحقها من غنيٍّ أو هاشميٍّ ويُعطي من يعطيه قاصدًا وجه الله لا يريد من أحدٍ جزاءً ولا شكورًا.

وإذا توسعنا في معنى الإعطاء والمنع تناولا كل فعلٍ يعطيه من نفسه بالإقدام عليه أو يمنعه بالكفِّ عنه، فيجتمع من هذه القرائن الأربع صلاح النيات والأعمال كلها.

ولا ريب أن من كان في ميوله ومعاملاته إنما يصدر عن باعث الدين متحريًا رضا الله وسخطه في كل ما يأتي ويذر فقد استكمل الإيمان حقًا ووصل إلى الغاية التي ليس وراءها غايةٌ:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾

(الأنعام: ١٦٢، ١٦٣)

«أخرجه أبو داود»: في باب الدليل على

(*) نال عضوية كبار العلماء عام ١٩٤٩م، وتوفي عام ١٩٥٨م.

(١) جامع الأصول: ٢٣٩/١- كتاب الإيمان والإسلام- الباب الأول في المجاز- الحديث رقم (٢٤). وتيسير الوصول: ١٩/١. وسنن أبي داود: ٥٢٣/٢- كتاب السنة- باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه.

(٢) نسبةٌ إلى (باهلة): قبيلةٌ مُضريةٌ من (قيس) ومنها (سَحْبَان وائل)، البليغ المشهور.

زيادة الإيمان ونقصانه -من كتاب السنة- قال المنذري: في إسناده القاسم بن عبد الرحمن، وقد تكلم فيه غير واحد. اهـ.

أقول: هذا الوهن في سنده لا يوجب وَهْنًا في متنه، فمعناه صحيحٌ مؤيدٌ بقواعد الكتاب والسنة، وقد روى الترمذي مثله في صفة القيامة والرقائق عن «معاذ بن أنس الجهني» ولفظه أن رسول الله ﷺ قال: «من أعطى لله ومنع لله وأحب لله وأبغض لله وأنكح لله فقد استكمل إيمانه»[٣] قال: وهذا حديثٌ حسنٌ.

عن أنس -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» أخرجه الخمسة إلا أبا داود[٤].

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»: الخطاب في (أحدكم) يَعُمُّ معناه كل المسلمين في كل العصور وإن كان بصيغته خاصًا بالمشافهين والأصرحُ في هذا العموم رواية: «لا يؤمن أحدٌ» أو «لا يؤمن عبدٌ».

والمراد (بالأخ) من له أخوة الإسلام مُطلقًا كما صرحت به بعض الروايات بلفظ: «حتى يحب لأخيه المسلم» فالمسلمون على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وديارهم وألسنتهم وألوانهم أسرة واحدة:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)

وفي رواية للنسائي: «والذي نفس محمد بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير». وهذا قيدٌ لا بد منه؛ لأن من كان يحب لنفسه شيئًا من الشهوات المحرمة ليس من تمام إيمانه أن يحب للمسلمين مثل ذلك. وإنما سُكت عنه في الروايات الأخرى اتكالًا على فهمه من مقاصد الشريعة وعُرف خطابها. وذُكر في هذه الرواية دفعًا لأدنى إبهام، بالتنصيص على أن المراد بالمحبوب ما هو خيرٌ شرعًا، والخير الشرعي يتناول الحظوظ الأخروية كلها، كالعلم النافع والعمل الصالح، والعاقبة الحسنى. ولا يتناول من حظوظ الدنيا إلا ما كان منها غير مذموم، كسعة الرزق من الحلال، ونجابة الأولاد، وطولِ العمر، والسلامة من المكاره وأشباه ذلك.

وقوله عليه السلام: «ما يحب لنفسه» أي: مثل ما يحب لنفسه، فهو مفعولٌ به على التشبيه، كما يُنصب المفعول المطلق على التشبيه في قولك: سِرْتُ سَيْرَ زيدٍ أي: مثل سيره. على أن تقدير المضاف في هذه الأمثلة إنما يُحتاج إليه طلبًا لاستقامة الكلام عقلًا[٥] عند التدقيق الفلسفي، وقلما يُلاحظ العربي هذا التقدير في محاوراته ومخاطباته، بل ربما كانت ملاحظته مؤدية لخلاف مقصوده، فإن بناءه الكلام على هذا الحذف يريد به أن يُعطي السامع من الأمرين المتماثلين صورة واحدة، اعتمادًا على أن بينهما

---

(٣) سنن الترمذي: ٧/٢٠٧-٣٨- كتاب صفة القيامة والرقائق والورع - ٦١- باب اعقلها وتوكل- الحديث رقم (٢٥٢٣).

(٤) جامع الأصول: ١/٢٣٩- الكتاب الأول في الإيمان والإسلام -الباب الأول- الفصل الثاني في المجاز -الحديث رقم (٢٣). وتيسير الوصول: ١/١٩. والبخاري: ١/٥٣-٥٤- باب علامة الإيمان. وصحيح مسلم: ١/٦٧-١- كتاب الإيمان- ١٧- باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه- الحديث رقم (٧١)- (٤٥). والنسائي: ٨/١١٥- فيه باب علامة الإيمان، وإسناده صحيح. والترمذي رقم (٢٥١٧) - (٣٨) - كتاب صفة القيامة - ٥٩- باب النظر في الدين لمن هو أعلى- وأخرجه ابن ماجه في المقدمة رقم (٦٦).

(٥) لأنه لو أُبقي على ظاهره بحيث يتمنى المرء أن يكون لغيره عين ما يحبه لكان ذلك إما مع بقاء ما يحبه له أو زواله عنه. وكلاهما غير مستقيم. أما الأول فلأن الشيء الواحد لا يكون في مكانين في وقتٍ واحدٍ، وأما الثاني فلأن عاقلًا لا يتمنى زوال النعمة عن نفسه وحصولها لغيره، ولا يجب عليه ذلك شرعًا، والإيثار المندوب هو بذل الموجود مع الحاجة إليه، لا تمني عدم وجوده.

من تمام المماثلة في الكم والكيف ما يسوغُ دعوى هذا الاتحاد وإن تعدد مكانهما.

والحديث يرمي إلى هذا الغرض فيما يرمي إليه من المعاني، فإنه كما يطلب من المسلم أن يُحب الخير لسائر المسلمين يُطلب منه فوق ذلك أن يُسويهم بنفسه في قدر ما يُحبه، حتى كأن ما يتمناه لهم هو عين ما يتمناه لنفسه. وذلك بألا يتمنى لنفسه أكثر ولا أفضل مما يُحبهُ لهم.

وقد يظن بعض الناس أن هذين المطلبين من النوافل المستحبة في الدين وأنهما بمنزلة الإيثار على النفس أو آكدُ منه قليلًا. وليس كذلك، بل هما من واجبات الإيمان ومن آكد واجباته.

وحسبنا دليلًا على عظم شأنهما وغلظ حقهما أن النبي ﷺ جعل اسم الإيمان لا يستحقه من خلا قلبه منهما.

نعم اشتهر في أمثال هذه الزواجر أن يتأول العلماء الإيمان المنفي فيها على معناه المجازي، فيقال: «لا يؤمن أحدٌ» أي: لا يكمل إيمانه أو لا يؤمن إيمانًا كاملًا. كما يقال: «فلانٌ ليس بإنسان» بمعنى أنه غير مُراعٍ لآداب الإنسانية، لا بمعنى أنه ليس حيوانًا ناطقًا.

وهذا كلامٌ حقٌّ في جوهر معناه، وإن كان في صورته لا يخلو من إبهام، بل من إيهام للباطل. أما إنه حقٌّ في جوهره فلأنه ليس مقصودَ الحديث نفي أصل الإيمان بحيث يخرج عن الملة كل من لم يكن كذلك، فإن إجماع أهل السنة على أن المسلم لا يُكفر بذنب، ومما يؤيده في خصوص الموضوع ما رواه أحمد عن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- أنه سأل النبي ﷺ عن أفضل الإيمان فقال: «أن تحب لله وتبغض لله وتُعْمل لسانك في ذكر الله» قال معاذ: وماذا يا رسولَ الله؟ قال: وأن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك». فلم يجعل هذه الخصال من أصل الإيمان بل من أفضل خصاله كما جعل منها الحج المبرور والجهاد وغيرهما.

وأما إنه مُبهمٌ وموهمٌ للباطل فلأن (كمال الإيمان) كلمةٌ غير محدودة إذ هي مقولةٌ بالتشكيك على كل فرع من فروع الدين فرضًا أو نفلًا، وأول ما ينساقُ الذهن منها إلى نوافل الدين ومندوباته لا إلى فرائضه وواجباته. فالتعبير بها في هذا المقام مفوتٌ لمعنى الزجر الشديد المقصود من الحديث، مُهونٌ للخطب في مخالفته، بل يكاد يغري بالتساهل في امتثاله إذ لا يطلب هذا الكمال إلا قليلٌ من الناس.

والأحرى بمن يتصدى لشرح هذا الحديث وأمثاله أن يُعبر بالعبارة الصريحة المحدودة فيقول: (لا يؤمن) أي لا يقوم بالواجب الذي يفرضه الإيمان بل يكون من أهل الفسوق والعصيان، إلى نحو ذلك من العبارات الكاشفة عن وجه ما فيه من الزجر والتغليظ، المبينة لما في مخالفته من ضروب الإثم والباطل.

ولعمري إنه لا ينطوي على كراهة الخير للغير إلا أحد ثلاثة:

(إما) رجلٌ يسخط قضاء الله ولا يطمئن لعدالة تقديره، فهو يريد أن يقسم رحمة ربه على غرار شهوته، ولو اتبع الحق هواه لما أذن لغيره أن يتنسم نسيم الحياة:

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾

(الإسراء: ١٠٠)

ومثل هذا المعترض على حكمة الله ليس من الإيمان في شيءٍ، وإنما هو من أتباع إبليس في الدنيا والآخرة.

(وإما) رجلٌ أكل قلبه الحقد والحسد وما يمتُ إليهما من الأدران الباطنية التي قد يولدها سقم الطبع ومرض النفس، وهذا ربما يجد دواءه بطول العلاج تحت إشراف طبيبٍ من أطباء

القلوب أمثال الإمام الغزالي رحمه الله.

(وإما) رجلٌ أذهلته شهوة طبعه عن سعة فضل الله، حتى كأنه يخشى إذا زاحمه الناس على الخير ألا يبقى له حظٌ معهم. وهذا دواؤه عندنا الإيقاظ والتنبيه بالذكرى التي تنفع المؤمنين حتى يتذكر أن ما عند الله لا ينفدُ بكثرة الإنفاق، وأنه لن يُعجز الله أن يُعطي لغيره مثل ما أعطاه من غير أن ينقص ذلك شيئًا من نعمته عليه. وحسبهُ من هذه الذكرى أن يسمع مثل قوله ﷺ: «يد الله ملأى لا يغيضها نفقةٌ، سَحَّاءُ بالليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يده»[٦] (رواه الشيخان).

وقوله ﷺ فيما يرويه عن ربه من الحديث القدسي الذي أوله: «يا عبادي كلكم ضالٌ إلا من هديته»[٧] قال: «ولو أن أولكم وآخركم وحَيَّكُم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا في صعيدٍ واحدٍ فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته فأعطيت كل سائلٍ منكم ما سأل ما نقص ذلك من مُلكي إلا كما لَو أن أحدكم مر بالبحر فغمس فيه إبرةً ثم رفعها إليه»[٨] رواه الترمذي وحسنه.

بقي لقائل أن يقول: «إن المرء قد يشتهي لنفسه مرتبة السبق في أمر ما، وهذه منزلةٌ لا تُمكنُ المساواة فيها ولا تُقبلُ مُزاحمة اثنين عليها فكيف يحب لغيره مثل ما يحب لنفسه في هذا الفرض، مماثلةً بالشخص لا بالنوع؟

والجواب أن محبة العلو إما أن تكون في أمر الدنيا أو في أمر الدين:

فأما أمر الدين فمحبة العلو فيه مقبولةٌ بل مندوبٌ إليها؛ لأنها من دواعي طلب الكمال في الأعمال وهذا هو مجال التنافس الحقيقي.

﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ﴾

(البقرة: ١٤٨)

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾

(الحديد: ٢١)

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾

(المطففين: ٢٦)

لكن بشرط أن يكون نظره في ذلك إلى الله لا إلى الناس، أعني ألا يكون همه مُزاحمة غيره أو كراهة فضل الله عليه أو تمني زواله عنه، فإن طلب العلو في الدين لا يجتمع والغل والحسد في قلبٍ واحدٍ:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾

(الأعراف: ٤٣)

بل يكون مطمح قصده نيل القُرب من ربه والوصول إلى أعلى الدرجات الممكنة لمثله عنده. وهذا معنى لا يضيقُ على المتزاحمين بل يسع الأمثال وأمثال الأمثال، فليس قُربُ العبد من ربه بموجب بُعد غيره عنه كما يتصور في منازل الدنيا، ومثال هذا كما ذكره الغزالي أن الناس لا يُضَيِّقُ بعضهم على بعضٍ في النظر إلى نجوم السماء كما يُضيق بعضهم على بعضٍ في النظر إلى البساتين.

وأما العلو في أمور الدنيا فلا نُسلم أنه داخلٌ في مسمى (الخير) الشرعي حتى يدخل في موضوع الحديث، فقد قال ﷺ: «انظروا إلى من

---

(٦) صحيح مسلم: ٢/٦٩١-١٢- كتاب الزكاة - ١١- باب الحث على النفقة- الحديث رقم (٣٧).

(٧) سنن الترمذي: ٧/١٨٧-١٨٨-٣٨- كتاب صفة القيامة- ٤٩- باب فضل الرفق بالضعيف والوالدين والمملوك- الحديث رقم (٢٤٩٧).

(٨) سنن الترمذي: ٧/١٨٧-١٨٨-٣٨- كتاب صفة القيامة- ٤٩- باب فضل الرفق بالضعيف والوالدين والمملوك- الحديث رقم (٢٤٩٧).

هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدرُ ألا تزدروا نعمة الله عليكم»[٩] رواه الترمذي وصححه وتفصيله في الحديث الآخر: «خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكرًا صابرًا، ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله شاكرًا ولا صابرًا. من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به، ونظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله به عليه، كتبه الله شاكرًا صابرًا، ومن نظر في دينه إلى من هو دونه ونظر في دنياه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاته منها لم يكتبه الله شاكرًا ولا صابرًا» رواه الترمذي[١٠] وقال: حسنٌ غريبٌ.

وبعد تسليم أن محبة العلو بغير استكبارٍ ليست مذمومة شرعًا وإنما هي خلاف الأفضل، نقول إن من وجد من نفسه هذا الميل إلى المراتب السامية في الدنيا يجب عليه أن يُوطن قلبه على حب مثلها لأخيه، وذلك على صورتين:

إما بأن يُحب له الحصول على مثل هذه المرتبة من السبق في محبوبٍ آخر بحيث لا يُزاحمه في هذا المقصد، وإما بأن يُقدِّرَ أن غيره لو حصل على هذه المرتبة التي يشتهيها لنفسه لم ينفسها عليها، بل يرضاها له، فإن نال ما تمناه لنفسه وقد انطوى على هذه المحبة فعسى الله أن يبارك له فيما أعطاه، وإن كانت الأخرى فعسى الله أن يعوضهُ مثله أو خيرًا منه في أمرٍ آخر ببركة سماحة نفسه ورضاه.

وبهذا تبين أن تحقيق المساواة بيِّنٌ وحُب الخير للغير وحب الخير للنفس ممكنٌ في أمر الدنيا والآخرة وأنه فرضٌ على المسلم في كليهما.

«أخرجه الخمسة إلا أبا داود»: أخرجه الترمذي في أبواب: صفة القيامة والرقائق. وأخرجه الباقون في كتاب الإيمان.

❊❊❊

(٩) سنن الترمذي: ٧/٢٠١-٣٨- كتاب صفة القيامة والرقائق- ٥٩- باب النظر في الدين لمن هو أعلى- الحديث رقم (٢٥١٥).
(١٠) سنن الترمذي: ٧/٢٠١-٣٨- كتاب صفة القيامة والرقائق- ٥٩- باب النظر في الدين لمن هو أعلى- الحديث رقم (٢٥١٤).